

الواقع الافتراضي وأثره في المجتمع المدني

أ.د صابرين زغلول السيد

جمهورية مصر العربية

المستخلص

يشهد عالمنا المعاصر كثيراً من الفوائد التي قدمتها لنا وسائل الميديا المختلفة والتقنيات التكنولوجية الحديثة، ولا سيّما ما يُعرف بالواقع الافتراضي، الذي نشأ بدافع الحوار وتبادل الآراء بالدرجة الأولى؛ مما يؤكد سعي الأفراد إلى إثبات الذات ونشر الأفكار. وقد أصبحت الهوية الافتراضية لدى غالبية الأفراد انعكاساً لهوياتهم الحقيقية؛ وهو ما يفسر تصريحهم ببياناتهم الحقيقية المتعلقة بالسن والجنس والمواصفات، ووضع صورهم الحقيقية. كما يحاول البعض ربطها بالهوية الحقيقية عن طريق الاسم المستعار الذي غالباً ما يحمل دلالات شخصية، وكذلك من خلال وضع صور رمزية واتخاذ شعارات تحمل توجهاً فكرياً أو توجهاً آخر. وقد ساعدت على ذلك عوامل زادت من فعالية الأفراد داخل الواقع الافتراضي وعززت تمسكهم به، كما عملت على إثبات هويتهم وإظهار قدراتهم، ومنها تقلدهم مناصب في هذه المجتمعات، وحصولهم على تقدير أو وسام اعترافاً بجهودهم. ويرى غالبية الأفراد أنهم، من خلال الهوية الافتراضية، يكونون أكثر تفاعلاً ونشاطاً ومشاركةً وحسن تصرف في الواقع الافتراضي مقارنة بالواقع الفعلي؛ وذلك نظراً لخصائص الواقع الافتراضي الذي يركز على التواصل الفكري لا على المظهر والانطباعات الأولى كما هو الحال في الواقع الفعلي. كما أنه أكثر تلقائيةً وصراحة لانعدام تعقيدات الاتصال المباشر، سواء الاجتماعية، كالقيام ببعض الترتيبات أو العادات والمراسيم، أو النفسية، كالشعور بالخلج أو الارتباك وغيرها. إلا أن القدرة على إخفاء الهوية أدت، بصورة سلبية، إلى ضعف مصداقية الهويات الافتراضية، وشجع بعضها على اختراق الحدود الدينية والأخلاقية والسياسية.

الكلمات المفتاحية: الواقع الافتراضي، المجتمع المدني، الهوية الافتراضية، الواقع المفرط، الاصطناع.

Virtual Reality and Its Impact on Civil Society

Prof. Dr. Sabreen Zagloul Al-Sayed

Arab Republic of Egypt

Abstract

Our contemporary world is witnessing a lot of benefits provided to us by the various media and modern technological technics, especially in what is known the virtual reality, which arose out of dialogue and exchange of views in the first place, and confirms the efforts of individuals to prove themselves and disseminate ideas, and the virtual identity of the majority of individuals has become a reflection of their true identities, which is What explains their

declaration of their real data about age, gender, specifications, and putting their real pictures, as some try to link them to the real identity through a pseudonym that often has personal indications. As well as, putting symbolic pictures and making slogans holding the intellectual orientation or another orientation, and this was helped by factors that worked on increasing the effectiveness of individuals within virtual reality and increasing their adherence to it. In addition, working to prove their identity and demonstrate their capabilities, including holding a position in these societies and obtaining an appreciation or a medal in recognition of their efforts. About it in actual reality, due to the characteristics of virtual reality that focuses on intellectual communication and not on appearance and first impressions as it exists in actual reality, and it is more spontaneous and explicit due to the lack of social complexities of direct communication, such as making some arrangements, customs, ordinances, or psychological, such as feeling ashamed or confused and others, but the ability to hide identity negatively led to the lack of credibility of virtual identities that encouraged Some of them penetrate the religious, moral and political borders...etc.

Keywords: Virtual reality, civil society, virtual identity, hyperreality, simulation.

المقدمة

ان انقلاب الوسائل والتقنيات التكنولوجية وعكسها عن مسارها الصحيح وأصبحت تمثل منعطفًا خطيرًا داخل المجتمعات المدنية وذلك بسبب توغل هذه الوسائل والتقنيات إلى صميم حياتنا اليومية أكثر من اللازم فأصبحت جزءًا لا يتجزأ من واقعنا المعاش لدرجة أننا خلقنا من خلالها عالماً بعيداً كل البعد عن واقعنا المادي الملموس، الذي يتميز بصيرورته وكيونته، فأصبحنا فريسة لفقد كثير من القيم الحقيقية في وضع جديد مليء بالفراغ الروحاني كان من نتيجته صعود كثير من موجات الشك المعرفي والوجودي وأصبحنا لا نميز بين ما هو حقيقي ملموس وما هو مصطنع محاكى لبنني من جديد كهفًا أفلاطونيًا لا تميز فيه بين عالم الأوهام والظلال والعالم الحقيقيين، وأصبحنا نتساءل: هل الحقيقة هي العالم المصطنع الافتراضي أم عالمنا المادي الواقعي؟، هل ندرك أننا نعيش داخل عالم مصطنع افتراضي أم أن الميديا جعلت ما هو مصطنع حقيقيًا؟، كيف نقهر الاغتراب الذي فقدنا بسببه هويتنا و ذواتنا الحقيقية داخل عالم مصطنع مفرط؟

أسئلة كثيرة تصدى لها بعض الفلاسفة على رأسهم جان بودريار "1929-2007م" الفيلسوف والسوسيولوجي الفرنسي الذي طرح هذه الإشكالية بقوله "ما الذي تبقى إذن من الواقع المادي ونحن نشهد في كل مكان حقنًا هائلًا ومتواصلًا للواقع بالصورة والتمثيل والافتراضي" (Baudrillard، 1994) ومن أجل ذلك حاول "بودريار" في كثير من أعماله وكتابه التصدي لما سماه بعصر موت الواقع أو نهايته، الذي كان أبرز سماته نشأة العوالم الافتراضية، فقام بتحليل المبدأ المادي للواقع من صراع وتناقض وجدلية ونفي وقطعية ومجازة وثورة والذي كان من نتائجهم جدليات هادمة نتيجة القطعية التي خلقتها العوالم الافتراضية بين الإنسان ومجتمعه فأصبح مغتربًا حتى في وطنه وأصبح يعيش بعيون المغترب بين عالمين مختلفين لم يجتمعا على حافة التماس إلا وقد افترقا، وهما العالم الواقعي والعالم الافتراضي، ومن أجل ذلك كان لابد لنا من الوقوف على موقف (بودريار) من الواقع الافتراضي من خلال العديد من المفاهيم التي طرحها في

محاولة للوقوف على تلك الهوة الكبيرة التي حدثت بين العالم الواقعي والآخر الافتراضي من أجل إعادة الذات المستلبة التي فقدت هويتها داخل هذا العالم ذلك العالم الافتراضي.

الواقع الافتراضي Virtual reality

في ظل التأثيرات التكنولوجية الحالية انطلق (بودريار) في طرحه لمفهوم الواقع الافتراضي من خلال طرحه لفكرة الواقع المفرط (Hyper-Reality)، والذي يعني عدم قدرة الوعي على التمييز بين الواقع ومحاكاة الواقع، وخاصة في المجتمعات ما بعد الحداثية التي شهدت تقدماً تكنولوجياً هائلاً، وينظر إلى الواقعية المفرطة بوصفها حالة يمتزج فيها الحقيقي والخيالي معاً بسلاسة حتى لا يكون هناك تمييز واضح يحدد أين ينتهي أحدهما وأين يبدأ الآخر، مما يتيح الاختلاط بين الواقع المادي والواقع الافتراضي والذكاء البشري والذكاء الاصطناعي وقد يجد الأفراد أنفسهم لأسباب مختلفة، أكثر انسجاماً أو تورطاً مع عالم الواقع المفرط مقارنة بالعالم الحقيقي المادي لذلك يرى (بودريار) "أن الواقع الحقيقي لم يعد ما كان عليه من قبل، حيث أثرت وسائل التكنولوجيا في تشكيل الوعي الاجتماعي الجديد في العصر الحاضر ومع تطور وسائل الاتصال والثورة التكنولوجية التي شهدها عصر ما بعد الحداثة أصبحت وسائل الإعلام تمارس دوراً جوهرياً في إثارة اهتمام الجمهور بالقضايا والمشكلات المطروحة" (Baudrillard, 1994) حيث تعد وسائل الإعلام مصدرًا رئيسياً يلجأ إليه الجمهور في استقاء معلوماته عن كافة القضايا، بسبب فاعليته الاجتماعية وانتشاره الواسع فهو - الإعلام - بقدرته على الحراك ومخاطبة القسم الأعظم من التكوين المجتمعي، يمتلك تلك الإمكانية على التأثير لا سيما الفضاءات الافتراضية، التي تقوم بتشكيل الوعي الاجتماعي بصورة غير مباشرة، وقد ذهب "بودريار" إلى أن المعلومات والاتصالات، أصبحت يستعاض عنها بما يعرف بالواقع المفرط الذي يحاكي الواقع الفعلي وذلك من خلال الإثارة واختراع الأكاذيب التي تجعل من حقيقته، هي الأفضل وقد تم ذلك عند نقطة تحول حاسمة من خلال الانتقال من الإشارات التي غطت على الأشياء، إلى علامات تخفي وجود هذه الأشياء، وعلى ذلك أصبح الواقع المفرط يعرف بأنه ثقافة مليئة بالنماذج الحقيقية التي لم تكن موجودة، مما ترتب عليه عواقب بفقان "التمييز بين الحقيقي والمنتخيل" (Baudrillard, 1994) وأصبحنا نخاطر بأن الحقيقي لا يحتاج لأن يكون عقلاً؛ لأنه لم يعد لدينا المقاييس نفسها التي نحكم من خلالها على المثال الأعلى أو السليبي. ولذلك ساد منطق المحاكاة أو الاصطناع الذي ليس له أي علاقة بمنطق الحقائق أو الترتيبات العقلانية (Baudrillard, 1994) ويعتبر مصطلح الاصطناع أو المحاكاة من المفاهيم المهمة والضرورية لفك ألغاز الواقع المفرط عند (بودريار)، ولذلك لا بُدّ لنا من تسليط الضوء على هذا المفهوم.

الاصطناع Simulation

لعب مفهوم الاصطناع دورًا أساسيًا في تشكيل منظومة العالم المفرط في فلسفة بودريار، ولكي نفهم مفهوم الاصطناع عنده لا بُدَّ من إظهار التباين بين مصطلح الاصطناع (Simulation) والإخفاء (dissimulation)، وقد ذهب "بودريار" إلى أن الإخفاء يلزمه وجود الشيء أولاً ليتم إخفاؤه، فهو على حد قوله يعني "التظاهر بعدم امتلاك ما نملك" (Baudrillard، 1994)، لذا فإن ذلك المصطلح يعني (بما نملك) فنحن لا نخفي شيئًا ليس بحوزتنا، لأنه لا يمكن إخفاء اللاشيء أو العدم، كما أنه ليس بمقدورنا حجب ما طالما أنه غير موجود، فلزم وجوب وجوده وملكه.

أما الاصطناع فهو "التظاهر بامتلاك ما لا نملك" (Baudrillard، 1994)، وهو بهذا يعني الذي لا نملكه مدعين امتلاكه واستمرارية ذلك الامتلاك، أو بمعنى آخر ادّعاء حضور الغائب، وذلك لأن موضوعاته ليست واقعية وغير حقيقية نظهرها على أنها وقائع طبيعية، لذلك كانت مكانة الغياب متباينة بين المصطلحين، ففي مصطلح الإخفاء مكانة الغياب ثانوية؛ لأنها تأتي بعد الحضور أو الوجود والملكية، أما فيما يخص مصطلح الاصطناع فتلك المكانة - الغياب - أساسية تدخل في بنيته وصلب تكوينه لأنه يقوم عليها فهي مرجعيته الاستراتيجية، ومع ذلك فالاصطناع ليس بهذه البساطة والوضوح والتميز، لأنه أكثر تعقيدًا وتركيبًا وتضليلًا، ذلك "لأن الاصطناع غير التظاهر" (Baudrillard، 1994)، أو التمثيل، بل بالعكس هو معارض له ذلك أن العلامة والرمز يمثلان الحقيقة في التظاهر وهما متكافئان مع الحقيقة الواقعية، في حين أن الاصطناع يبدأ من يوتوبيا هذا التكافؤ، من خلال الارتداد بالعلامات والرموز عن كل مرجعية وبالتالي الحكم عليها بالإعدام، كذلك نجد التظاهر يحاول امتصاص ما هو مصطنع ومحاكى عن طريق تفسيره على أنه تمثيل كاذب، ولذلك فالتظاهر بالشيء لا يعني اصطناعه، على سبيل المثال من يتظاهر بالمرض - كما يقول بودريار - يمكنه ببساطة أن يستلقي على سريره ليوهم الآخرين بأنه مريض، أما من يصطنع المرض فإنه يعمل على أن يعين في ذاته بعض الأعراض، ولذلك فإن الاصطناع متباين تمامًا عن التظاهر والإخفاء ومؤثر في الواقع على نحو مغاير لهما، حيث إن تأثيره يحل بالتوازن في الواقع، بل إنه يشوه الواقع ويمزق مبادئه في حين تأثير التظاهر والإخفاء لا يؤثر أو يغير من توازن الواقع، ولذلك فالاصطناع لا يعبر ثم يمضي ويذول؛ لأنه ليس استراتيجية سطحية ثانوية وإنما موجه بالضرورة ضد مبادئ الواقع ومقولاته، فالاصطناع إذًا يضع الواقع في زلزلة قوية مفادها فقدان ثنائياته وتناقضاته مما يعمل على زيادة الهشاشة لمبدأ الواقعية، ويرمي بظلاله على أي إمكانية للتمييز بين الحقيقة والزيغ والصدق والكذب، الخير والشر، بين الواقع والخيال... إلخ، وهذا بدوره يؤدي إلى زلزلة عمق المعاني من خلال عدم التمييز بين حدودها ونظيراتها ونقيضتها، فيحدث ما يمكن أن نسميه بالدمج بين الواقع والمصطنع، لذلك فإن الاصطناع بكونه موجهًا بالضرورة ضد مبادئ الواقع، فإنه يسعى إلى خلق ابستمولوجية فوضوية جرثومية أساسها التميؤ والتضليل

وانعدام الشفافية، مما يؤدي إلى سقوط مبادئ الواقعية وحدودها لحدوث هذا الدمج حيث لم يكن هناك ما يميز ذلك الحد الفاصل بين ما هو واقعي وخيالي أو حقيقي وسراب زائف؛ لأن جميع تلك المصطلحات قد أُزيلت الحدود بينها وبين نقيضها "بميت لم يعد هناك بُعد خيالي مستقل عن الواقع" (Baudrillard، 1994) ولن يبقى إلا الزيف المنفصل عن الحقيقة، لقد اختلقت الأوراق والعناصر والأشياء، وفي هذا المستوى نلمس تشابهاً بين نظرة بودريار للعالم ونظرة ديريدا للعالم كنص، فديريدا كذلك يقر بالطابع "المتردد واللايقيني indécidabl للعالم.

ولذلك يتساءل بودريار: بما أن المصطنع يخلق أعراضاً حقيقية فهل هو مريض أم لا؟ ويجب بقوله: "لا نستطيع أن نتعامل معه موضوعياً لا كمريض ولا كسليم هنا يتوقف الطب وعلم النفس أمام حقيقة مرض صارت غير معروفة" (Baudrillard، 1994).

إذن فما هي نتيجة هذا الاصطناع على الواقع؟ النتيجة أن الواقع بعدما أصبح مصطنعاً ومفبركاً أصبح عصبياً عن الفهم ما دمنا لا نستطيع تمييز مظاهره الحقيقية عن المصطنعة، لذلك يقول بودريار "لقد انحط الجميع في اللعبة، لعبة الإيهام، ذلك أن الاصطناع جعلنا "لم نعد نتوقف على معيار أو مقياس أو إطار أو مرجع أنطولوجي أو قاعدة ابستمولوجية أو ضوابط أخلاقية نائية أو يقينيات دينية تصلح للتمييز بين الأشياء ورسم الحدود وتحديد المسارات وتثبيت الأسماء وضبط الآفاق وطرد الأشباح والأوهام والتناقضات" (Baudrillard، 1994)، والمثال الذي يشرح ويوضح به بودريار ذلك الاصطناع هو مثال ديزني لاند Disney Land حيث يؤكد أن ظاهرة ديزني لاند ليست حقيقية وليست بالزيفة كذلك، إنها آلة تعمية (حجب، إخفاء...) غرضها الأساسي إعادة توليد وهم الواقع.

ومن هنا - يقول بودريار - بجزال التخيل وسخريته وانحطاطه، ذلك أن عالم "ديزني لاند" يريد أن يكون طفولياً ليوهم الناس أن عالم الكبار هو في مكان آخر - أي - في العالم الواقعي" (Baudrillard، 1994) وأن هذا العالم هو مجرد عالم ديزني لاند، ليخفي حقيقة أن الطفولة الفعلية هي في كل مكان، وأنه لا فرق بين ديزني لاند والعالم الواقعي، وواقع الولايات المتحدة الأمريكية بالخصوص، ديزني لاند هي طفولة الكبار بأنفسهم الذين يلعبون هنا دور الأطفال لخداع الناس وتوهمهم وإخفاء طفولتهم الواقعية (Baudrillard، 1994)، فديزني لاند نموذج مقولب (Stéréotype) يعبر عن الواقع الأمريكي دون التعبير عنه، وأساس هذه الصورة المقلوبة هي النممة أو التصغير (miniaturization) ولا شك في ذلك طالما أن عصر الاصطناع هو عصر النممة بامتياز، على حسب تعبير بودريار، وقد ساعد على ذلك أن تحولت كل الكلمات إلى إشارات ورموز تنتقل بفعالها الدلالات عبر فضاءات لتصبح كلمات ورموز للخطاب، لذلك أصبح الواقع في نظر بودريار مجرد وهم يتميز بالاختفاء كلما أردنا الاقتراب منه، فمثله في ذلك مثل سراب أنشأنا من خلاله واقعاً افتراضياً (Baudrillard، 1994) جاء نتيجة لاصطناع مفرط

تمثل فيه الأشياء لتحل محل الأشياء الممثلة، وأصبح التمثيل أكثر أهمية من "الشيء الحقيقي" (Baudrillard, 1994) وقد انتقد بودريار العلاقة بين الدال والمدلول عند "فرديناند دي سوسير (1913-1857م)" (سوسير، 1913) حيث أنكر مثل "جاك ديريدا" وجود أي معنى واضح، وقال بالدلالات العائمة أو المعنى المغيب، وبالتالي "رفض التمييز بين المظاهر والحقائق الكامنة وراء هذه المظاهر" (Baudrillard, 1981) وبالنسبة له، انهضت أخيراً الفوارق بين الدال والمدلول، ولم تعد العلامات تشير إلى مدلولات بأي معنى معقول، حيث يتكون العالم الحقيقي من الدلالات العائمة. ولذلك ذهب مثل الفيلسوف الألماني نيتشه، بوجود الحقيقة مادامت ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة والخطأ والظن والمبالغة المجازية والبلاغة التخيلية ووسائل الإعلام، وقد ذهب بودريار إلى أبعد مما ذهب إليه نيتشه بصياغته لمفهوم "ما فوق الحقيقة، حيث يكون شيء ما حقيقياً فقط عندما يتحرك ضمن نطاق وسائل الإعلام، وتولد تكنولوجيايات الاتصال في ما بعد الحداثة الصور العائمة بشكل حر، حيث لا يمكن لأحد أن يعيش أي تجربة إذا لم تكن بصيغة مشتقة، وقد أخذت تجربة العالم للعبث مكان أي ثقافة مميزة، وأصبح للعبث لهجة واحدة فقط: تلك التي تمتلكها الولايات المتحدة الأمريكية.

وهذا ما قاد العديد للشك في أن بودريار نفسه بمفهومه مافوق الحقيقة، لم يعد يسكن جسداً دنيوياً (كارتر، 2010)، حيث تحولت كتاباته إلى إستراتيجيات فادحة حيث أصبحت العلامات والرموز بلا معنى بسبب تكرارها واختلافها، وعلى الرغم من هذا التكرار والاختلاف البين لكل من العلامة والرمز إلا أنهما شكلا الجوهر الجذري الذي صاغ به بودريار اتجاهاته الأيدولوجية والإستراتيجية الفادحة، ويتضح ذلك من عبارته الشهيرة والأكثر إثارة للجدل "أن حرب الخليج عام (1991م) لم تكن حقيقية، بل كانت حدثاً إعلامياً" إنها غير حقيقية، إنها حرب دون أعراض الحرب" (Baudrillard, 1995) فهي في نظره عبارة عن وهم، لأنها لم تعد موجودة بقدر ما، إن الذي أصبح موجوداً هو فقط الوهم الذي فيه تم التعويض بالعلامات والرموز الحربية، فنحن لم نكن أمام حرب حقيقية بقدر ما أننا كنا أمام علامات ورموز حربية وهمية ومضللة وهي نفس الحرب التي مارسها الأمريكيان على الرأي العام العالمي من خلال وسائل الإعلام خاصة أنها حرب لا معنى لها؛ لذلك فما أشارت إليه وسائل الإعلام يمكن أن ينتمي إلى الواقع بقدر ما أنه يمكن أن ينتمي إلى الزيف، فنصبح بذلك أمام الشك أي عدم اليقين والارتباك، ولذلك يرى بودريار أن القول بأن الحرب لها وجود واقعي هو قول من قبيل الوهم؛ فالقول بالحرب هو تمثيلية، نجاحها ارتبط بالقدرة التي تمت ممارستها على ما يسمى "بالرأي العام" بفعل قوة تغطية وسائل الإعلام التي عملت على نشر وهم مساندة الجميع للحرب وكذا المبررات التي تم تقديمها للرأي العام على أنها مبررات صحيحة؛ وبذلك حلت عملية الحدث الإعلامي عن الحرب محل الحرب ذاتها؛ وبمعنى آخر، يرى بودريار، أننا لم نعد أمام اختلاف بين حرب هي حرب الكلمات أو الوهم الذي أسست له وسائل الإعلام بتوجيه من اليمين المحافظ خاصة

الأمريكي منه لترويض الرأي العام، وبين حرب التي هي الحدث ذاته الذي لن يحدث إلا في محيلة هذا الأخير بفعل قوة الإعلام التلفزيوني خاصة فترة حشد القوات العسكرية قبل فترة وجيزة عن انطلاق الحرب؛ ويتابع بودريار قوله "بأن مرجعية مجمل المسؤولين من رؤساء دول وسياسيين وعدد من الجنرالات والخبراء تتجسد في الإعلام التلفزي الذي هو آلية تمدهم بكثافة من الصور المزيفة والأخبار المعدة قبلاً في الموضوع" (Baudrillard, 1995) لذا لم يعد بمقدور الرأي العام المحلي والإقليمي والعالمي التمييز بين الحرب الحقيقية والحرب الوهمية، لقد أصبحنا أمام تمثيلية مسرحية محبوكة موقعها شاشات التلفزيون، تمثيلية لم يعد بإمكان الرأي العام التمييز فيها بين ما هو حقيقي وما هو وهمي، ولا شك أن تصور بودريار هذا هو تصور يندرج تحت استراتيجية منحطة لخطابات التحرر السياسي نظراً أولاً لعبثيتها المتمثلة في كون أن الأحداث السياسية وغيرها هي أحداث لا معنى لها وما على الرأي العام إلا أن يقتنع بذلك مادام هو الدائرة الوحيدة التي يتحرك من داخلها دون رفضها، وبطبيعة الحال، فهذا القول هو تعبير أيديولوجي عن أزمة النظام الرأسمالي الذي أصبح لكي يتجاوز أزماته، مضطراً إلى أن يصور الواقع كما يريد، وكما تقتضيه مصلحته الاقتصادية؛ وهذا يتطلب تعبئة المستوى السياسي الذي أفرغ سلوكيات الرأسمالية من المضمون السياسي المتوحش وإعطائه المضمون الغامض والشديد المرونة لاتقاء احتجاجات وتظاهرات وثورات الشعوب وهو نفس التنظير والتوجه الأبستمولوجي والأيدولوجي، لذلك أصبح التحقق من حرب الخليج غير ممكن إلا من خلال شاشات التلفزيون، فالصورة التلفزية هي نفي لأية إحالة واقعية أو حدثية أو لنقل إنها الصورة الافتراضية التي تتميز بالتوالد والتكاثر لكن بعيداً عن أي إحالة على الواقع؛ ولذلك عندما تصبح الصورة رمزاً لغويًا يتحدد مدلوله في نفي الواقع، أو لنقل عندما يتم تحويل الإعلام، وأهمه التلفاز، إلى فضاء افتراضي للحدث، فهنا يصبح أمام خلق شروط مشروعية الاستعمار والغزو وبالتالي الحصول على مشروعية إبادة الواقع وإحلال واقع افتراضي تقوم وسائل الإعلام بالدعاية لمشروعية وجوده ليصبح المشاهد شخصاً مسجوناً أمام الشاشة لذلك يرى بودريار أنه لم يعد للواقع مرجع أو أي سلطة وبالتالي لم يعد معقولاً "لقد غدا واقعاً استراتيجياً على وجه التحديد" (بودريار، 2006) لقد أصبح الإستوديو والشاشة كما يذهب إلى ذلك بودريار هما مركز القيادة في ميدان الحدث وبالتالي تغييب الميدان الحقيقي لصالح الميدان الافتراضي للحدث، وهذا يؤكد كما يذهب بودريار قصد تركية المصادقية على غزو العراق وغيره من دول الشرق الأوسط بل وغيره من باقي دول العالم - مثال رومانيا وقصد محاكمة وإعدام تشاوسسكو (1918-1989م) (تشاوتشيسكو، 1989) وعلى ذلك يرى بودريار أن الخبر والصورة لم يعودا في قبضة مبدأ الحقيقة والواقع" (Baudrillard, 1998) بل أصبحا في قبضة المحاكاة أو الاصطناع الحاكم على كل أفعالنا من خلال انخراطنا في العوالم الافتراضية، ووفقاً لما ذكره بودريار انعكس هذا على الفرد والمجتمع، حيث فقد الفرد هويته في ما يسمى بالشتات الذهني للشبكات" (بودريار، 2006) ولم تعد الأفكار الفردية ذات صلة بالموضوع،

وأستعيز عنها بالأصوات والأفعال التي تتردد أصداؤها في الشبكات بتضخيمها وتشويهها، وهو ما أدى إلى نتائج عشوائية غير متوقعة ولا يمكن لأحد أن يتحكم فيها حيث استبدلت الهوية الفردية بالهوية المفرطة (للشبكة أو المجموعة)، ويتساءل بودريار: أليس هذا غريباً على عكس ما نشكو منه، من أنانية مفرطة، وهوس بالذات والرجسية الفردية؟ فهل يكون شيئاً جيداً أن يوجه الناس أنفسهم أكثر نحو المجتمعات الافتراضية؟

هنا يذهب بودريار إلى أنه إذا لم يكن هناك واقع مشترك خارجي يختبر فيه الناس أفكارهم، فلن يوجد بذلك أساس للقاء الأفكار، وبالتالي تتلاشى الهوية شيئاً فشيئاً، وقد ساعد على ذلك وجود أشياء في الواقع الافتراضي من شأنها أن تساعد على الاغتراب النفسي والاجتماعي للفرد، فلم يعد المرء في الواقع الافتراضي يتفاعل مع أشخاص آخرين (مؤلف، فنان) فأصبح التفكير ينشط من خلال أدوات جاهزة تُعرض، وأصبح الفرد من خلال العالم الافتراضي يبني عالماً هو أشبه بالمعبودات التي يفضلها، كذلك أصبحت الشبكات الاجتماعية، مثل الفيسبوك عالماً منغلماً على نفسه حيث يتم اختيار الآخرين وفقاً للتشابه الذي يتجمع حوله الناس فيغلقون تفكيرهم على أنفسهم في شبكات أو مجموعات، ونتيجة لذلك فإنه نادراً ما يستطيع المرء مساعدة نفسه على التحرر من الاندماج، وبدلاً من ذلك يحدث النقيض حيث يدمر المرء قيم التسامح والتعاطف والفهم للآخرين الحقيقيين، من خلال انغلاق العقول التي تنحصر في المرسل والمتلقي فتصبح مماثلة دون أي إبداع، ووفقاً لما يسميه بودريار يحدث نوعاً من الالتواء يؤدي إلى فقدان المعلومات والتنوع في الحياة، ولذلك تؤدي الزيادة في المعلومات إلى نتيجة عكسية، حيث ينتج عنها ضالة القيمة المعلوماتية ولذلك يؤكد بودريار من خلال عبارته المشهورة "بأن ما يزدهر بنفس الطريقة سيهلك بنفس الطريقة" (Baudrillard، 1975) وقد ساعد على ذلك سببان:

أولاً : مع تكنولوجيا الاتصالات يحدث انفجار من الرسائل والصور التي نلتقي حولها والتي كثيرا منها ينشأ نتيجة التكرار، والازدواجية ، والتضخيم من خلال صدى شبكة الإنترنت نظراً لسهولة انخفاض تكلفه الاتصالات، و ذلك يسمح ببذل جهد أقل مما ينتج عنه تفكك المعلومات في نهاية الأمر .
ثانياً: إن ما يرسله الناس ويختارونه، عبارة عن ثروة ينتج عنها انخفاض للقيمة المعرفية، التي تؤدي لفقدان القيمة المعرفية في بعض الفئات الاجتماعية، وبالتالي فقدان التفرقة بين الآراء والأفكار، وهذا الأمر يتعارض مع طبيعة الحياة ذاتها، ويشكل شكلاً من أشكال الانحلال والموت، نتيجة لتعصب تلك العقول المغلقة، التي تساعد على قتل الحياة الثقافية، ولذلك ومن أجل بقاء الحياة من خلال الاتصالات، فإن ذلك يحتاج إلى كسر وفتح هذه المجتمعات المغلقة، من أجل استيعاب الحياة والعيش فيها، ومن أجل ذلك طالب بودريار بضرورة استيعاب أن عالماً هو عالم الواقعية المفرطة أو الواقع الفائق، الذي هدم حدود الواقع لينفتح على أضداده لتصبح هذه الأضداد مندججة فيه، كذلك لا بُدَّ من فهم أن استراتيجية الاصطناع تعني

الاختلاف بين الحقيقي والمزيف فمن منا سيقول مثلاً إن الصور المنقولة على شاشة القنوات الإخبارية بالخصوص غير واقعية أيضاً؟ صحيح أنها نسخ عن الواقع، لكنها استطاعت أن تحل محله من حيث القيمة وأصبحت أكثر واقعية منه، لذلك لا ينبغي النظر إلى الافتراضي والاصطناعي من جهة أخرى "كشئيين متعارضين أو كقطبين متناقضين" (Baudrillard، 1975)، ذلك أن الافتراضي والاصطناعي هما بالفعل أكثر واقعية من الواقعي ذاته، وتنساءل الآن كيف أثر الواقع المفرط الافتراضي على منظومة المجتمع المدني؟ يطرح بودريار ذلك التأثير من خلال مفهوم المجتمع الاستهلاكي الذي سنعرض له بإيجاز في السطور التالية.

المجتمع الاستهلاكي

كان من مظاهر التكنولوجيا المعاصرة ما يعرف بظاهرة المجتمع الاستهلاكي، الذي بدأ في الدول المتقدمة الغنية كتطور طبيعي، ونتيجة لارتفاع مستوى الدخل، بعد أن أشبع معظم الناس حاجاتهم الأساسية، وقد ساعد على ذلك ضغط الحكومات والمؤسسات الكبرى لفتح أبواب الاقتصاد، قبل أن يشبعوا الحاجات الضرورية لمعظم الناس، وقد نظر بودريار لظاهرة المجتمع الاستهلاكي على أنها نتج سوسيولوجي لمجتمع الرأسمالية الاستهلاكية، جاء مع دُزوة المفاهيم المعاصرة بين ما ذهب إليه إميل دور كايم (1858-1917م) لتقسيم العمل وتغيير التصنيع للمجتمعات من البساطة والاتساق إلى التخصص والاختلاف، وبين ما ذهب إليه ماكس فيبر (1864-1920م) في التفرقة بين الأخلاق البروتستانتية وأخلاقيات الرأسمالية، وبالنسبة لبودريارد، كان الاستهلاك هو السمة الرئيسية للمجتمعات الغربية، من حيث إنه "الاستجابة العالمية التي تركز عليها المنظومة الثقافية بأكملها" (Baudrillard، 1988)، ويطرح بودريار مفهوم الاستهلاك على أنه أصبح وسيلة للتفرقة، وليس للترضية، وهو نتيجة طبيعته لتولي الهيئات والأفراد هذه المسألة حيث تلاشى العالم الحقيقي الواقعي واستعاض عنه بعلامات وهمية من العالم الحقيقي.

وقد دعم ذلك موجات الدعاية والإعلان لسلع تافهة وغير ضرورية، مع تصويرها بأن الحياة لا يمكن أن تستمر بدونها، حيث أصبحت السلع نتيجة للتواصل الإعلامي والإعلاني عبارة عن منتجات من الممارسات البشرية، مثل 'الشالات الهندي، والمسدسات الأمريكية، والخزف الصيني والتوابل من المناطق المدارية... إلى آخره. (Baudrillard، 1988) وقد نتج عن ذلك توترات شديدة، تفوق بكثير ما أنتجته ظاهرة المجتمع الاستهلاكي من توترات في البلاد التي أبدعتها، وقد نظر بودريار إلى مجتمع الاستهلاك من خلال كيفية التحول من الليبرالية باعتبارها الصورة التي يرى عليها الغرب الرأسمالي نفسه إلى مجتمع الاستهلاك الذي هو الواقع الحالي والنهائية الأخيرة التي وصل إليها هذا الغرب، وقد عبّرت دراسات بودريار عن مدى تحول القيم والمثل البورجوازية والأيدولوجيا الليبرالية إلى قيم ومعايير استهلاكية تتحكم بها المؤسسات الكبرى

ووسائل الإعلام من خلال نسق من الرموز والعلامات التي لها منطقتها الخاص وحياتها الخاصة التي تلغي الحياة الواقعية للبشر، كما عبّرت دراساته أيضًا عن الكيفية التي يصنع بها الإعلام والاتصال عالما صناعيا يمثل واقعًا أكثر واقعية من الواقع نفسه (منصور، د.ت.) حيث يتحول المجتمع الاستهلاكي المعاصر بهذه الوسائل الإعلامية إلى أسطورة، ولهذا فهو ليس بحاجة إلى إنتاج الأساطير حسب ما يؤكد بودريار بقوله "يمكن القول إن عصر الاستهلاك بوصفه المآل التاريخي لكل المسار الإنتاجية المتصاعدة تحت برج الرأسمالية، وهو أيضًا عصر الارتهان الجذري، فقد شاع منطق السلطة وعمّ، إذ إنه يسير اليوم سيرورات العمل والمنتجات المادية، مثلما يسير الثقافة بأسرها والحياة الجنسية والعلاقات الإنسانية، وصولًا إلى النزوات الفردية، وهذا المنطق استرجع كل شيء، لا بمعنى أن كل الوظائف وكل الحاجات قد تموضعت واستعملت لأغراض الربح وحسب، بل أيضًا بالمعنى الأعمق، حيث ت مسرح كل شيء، أي تبرمج في خيالات، في علامات، في نماذج قابلة للاستهلاك" (بودريار، 1995).

ويرى بودريار أن ثقافة المجتمع الاستهلاكي في المجتمعات المعاصرة قد وصلت إلى النقطة التي اختفى فيها الحقيقي واستعوض عنها بنماذج "مصطنعة والتي هي جوهر الواقعية المفرطة، ولذلك يتمحور قلق بودريار حول مشكلة السلعة ودورها في المجتمع والثقافة، وقد أسس ذلك من خلال الرجوع لفلسفة ماركس العامة في "رأس المال" حيث جادل ماركس بأن المنطق الأساسي للمجتمعات الرأسمالية هو تراكم الثروة من خلال "الجمع الهائل للسلع الأساسية الذي تظهر في شكلها الأول كسلع فردية" (بودريار، 1995) وقد حاول بودريار تحرير هذا المفهوم الذي ساد في القرن (19) من خلال فلسفة ماركس وبخاصة أن حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية كان فيها التقدم في مجال العلم والتكنولوجيا مهادًا للأشكال الجديدة لتحليل السلع الأساسية، وهذا الأمر ينطوي على إشكاليه خاصة في مجال الاتصالات، ولذلك كان تحليل بودريار متباعدًا للمشكلة الأساسية للسلع الأساسية بوصفها "المشكلة الهيكلية لجميع المجتمعات" (بودريار، 1995)، وكان بودريار يتوقع أهمية دور الاتصال في تحليل السلعة، وبالتالي كان ينظر في تحليله لنموذج السلع الأساسية من خلال عدسة "شبه اللغويات" حيث توقع أهمية الاتصال في تحليل الظاهرة الاجتماعية التي لم يتمكن ماركس من القيام بها، ولذلك وجد بودريار أن ماركس لم يكن قادرًا على فهم شكل أبسط مفهوم للسلع الأساسية، ولذلك رأى أن تحرير التكنولوجيا في الثورة الصناعية لم يكن تحريرًا لقوة محضه، لكنه كان تطورًا تحت سيطرة الجماعات السياسية والعسكرية الحاكمة السابقة، كأداة للهيمنة والتمييز.

وقد عزز هذه الفكرة أن مجتمعتنا الحالي عبارة في الواقع عن معنى من الرموز والعلامات، وأن التجربة البشرية هي محاكاة للواقع، حيث المفاهيم الحالية للدخل ورأس المال وما إلى ذلك لم تعد تشير إلى الأشياء الحقيقية وأن الأحداث لم تعد وفقًا لمنطق التمثيل الشفاف أو اقتصاد المعلومات (بودريار، 1995) وقد جادل

بودريارد بأن الزيادة في العلامات والرموز في أواخر القرن العشرين للمجتمع العالمي قد سببت في كثير من المفارقات المتناقضة.

وفي الواقع لم يعد يعتقد في الليبرالية ولا الماركسية، وأصبحنا نعيش في حالة من الجدل نظرًا لأن العالم الدولي يعمل على مستوى تبادل العلامات والسلع الأساسية، فقد أصبح أعمى أكثر من أي وقت مضى للأفعال الرمزية مثل الإرهاب، و تفلت القوة من سيطرة الشركات، و تدخل في الأساطير الاجتماعية بوصفها هي المورد المفتوح للجميع، وبريئًا، ومتميزًا عن العملية السياسية، ولذلك أصبحت التكنولوجيا ليست مجرد أداة للهيمنة على الطبيعة بل هي أداة للاتقان الاجتماعي. وقد ساعد على ذلك ما يعرف بـ (الفكر الجذري) ذلك المصطلح الذي نحتة بودريار، فماذا يقصد بهذا الفكر؟

الفكر الجذري

الفكر الجذري عند بودريار ليس فكرًا نقديًا أو جدليًا، بقدر ما أنه فكر تأرجحي يقوم على التسليم بفكرة العلاقة المتوفرة بين الفكر والواقع بمعنى عدم إحلال الواحد محل الآخر أو النيابة عنه؛ وهذا راجع في نظره إلى عجز الفكر عن امتلاك الواقع الفعلي لصالح الواقع الوهمي أو المتخيل أو بمعنى آخر الافتراضي، وبلغت أخرى "الفكر الجذري" حسب بودريار هو موت الواقع، إنه الفكر الذي يتبنى ويحتضن المعنى واللامعنى أو الحقيقة والزيف في نفس الوقت، نظرًا لاستحالة تجاوز حالة التوتر الذي صنعه الواقع المفرط، ويطرح بودريار تساؤلات متكررة حول ما سمته ما بعد الحداثة بمبتايفيزيقا الواقع، نظرًا لنتائج التطور التكنولوجي والمعلوماتي التي عملت على تغييب الواقع والدعوة لتقيضه من خلال الواقع الافتراضي الذي يتميز بإيقاع زمني سريع يفوق قدرة الإنسان على متابعته ومسايرته؛ لذلك تمكن من الإحلال محل وعينا وقدراتنا الإدراكية وأصبح ينوب عنه في ممارسة مهامه وهو في واقع الحال أصبح يعني تخلي الإنسان نفسه وبشكل طوعي عن أدوات إدراكه؛ فعلى سبيل المثال لم يعد يثق في حواسه الطبيعية التي منها العين بما تراه وتبصر، لأن شاشات التلفزة وتقنيات المعلومات أصبحت تمده بما لا تستطيع عينه رؤيته، وقد أنتج ذلك لنا وضعًا على مستوى آخر هو تجاوز المكان لصالح الزمن؛ لذلك اختفت أهمية المكان بفعل سرعة إيقاع السرعة، فلم يعد مفيدًا التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل، ولم يعد مفيدًا التمييز بين هنا وهناك؛ لأن ذلك أصبح عبارة عن وهم بصري.

ومن هنا تم تدمير الأزمنة الثلاثة السابقة الذكر، لصالح زمنين اثنين هما: الزمن الحقيقي وهو بالذات زمن البث المباشر، والزمن المؤجل وهو بالذات زمن البث اللاحق، ويقصد بودريار بذلك أن قيمة الفكر لم تعد

تُستمد من تطابقها مع الحقيقة بقدر ما أنها أصبحت تُستمد من اختلافه الجذري عنها، بمعنى أن موقعه ووجود وعينا قد أصبح خارج الزمن الواقعي أو لنقل إن وجوده أصبح دوماً وجوداً مؤجلاً؛ وفي هذا يقول بودريار إننا لا نوجد واقعياً إلا في ما سماه "باللاوعي والنوم والموت" (Baudrillard، 1994) فالوعي أصبح هو الإيمان بالوجود الوهمي للعالم الذي اعتبره أساس الوجود لا الإيمان بالواقع، وفي هذا يقول بودريار: "إن الغريزة الأهم بالنسبة للإنسان هي غريزة الصراع ضد الحقيقة وبالتالي ضد الواقع، فالإيمان بالواقع هو بمثابة الحلقة الأكثر ضعفاً في فهم الواقع أو العالم الذي لا يعدو كونه قد أصبح، حسب تعبير بودريار" المأوى الأخير لحراس العقيدة (Baudrillard، 1994) ويرى بودريار أن العلاقة التي تربط الفكر بالواقع لم تكن ولا يمكن أن تكون علاقة تطابق بقدر ما هي علاقة توتر مستمر وأبدي؛ ومن هنا فأهمية ووظيفة الفكر الجذري تكمن في إبراز الهوة القائمة بينهما؛ وهذا ليس بتأسيس بقدر ما هو كذلك بالنسبة للنقد السياسي الذي يتجاهل أهمية الكتابة التي هي المعنى واللغة أو لنقل إنه نقد يتجاهل الخطاب الذي هو عبارة عن تحويل لمواضيع العالم إلى وهم يسمى "بالمعنى" الذي هو في هذه الحالة معنى شقي؛ ولكن لغة هذه الكتابة تبقى دوماً سعيدة، في نظر بودريار، على الرغم من إحالتها إلى عالم بلا أمل؛ وهذا بالضبط هو تعريفه لمفهوم الفكر الجذري: "معرفة سعيدة وفهم بلا أمل" (Baudrillard، 1994) إنه مفهوم يشير إلى وصف المعنى وهمه في نفس الوقت، وعموماً، فبودريار يحدد موضوع الفكر الجذري في فكرة الوهم؛ وخلفيته في ذلك هي إبراز أن المفهوم يكون غير قابل للفهم، والظاهرة غير قابلة للقراءة؛ أما الطرح المزيف للواقع فيكون أكثر وضوحاً؛ لذلك يقول: "على الفكر أن يكون ممارسة سرية، تماماً كبيع مادة ممنوعة. أما القاعدة المطلقة فهي جعل العالم غير قابل للقراءة، بل وأكثر من ذلك جعله لا مقروءاً" (بوجنال، د.ت.).

خاتمة

من خلال هذه المفاهيم السابقة التي عرضها بودريار نلاحظ أنها مفاهيم تساعد على اختلاط الهوية باللاهوية الافتراضية اللذين أصبحا نتاجاً لانتفاضة الذات على نفسها ودخولها في حالة من الاغتراب، لذلك يصبح الانسحاب والتبديل وجهين يتجانسان بوفرة في تلك الذات المغترية، حيث تنسحب الذات من العالم الواقعي لتتبدل جزئياً أو كلياً، اجتماعياً أو عقائدياً أو سياسياً أو ثقافياً أو جميعهم، فتُنشئ هويتها الخاصة في أرض افتراضية جديدة حيث يحكم اللاقانون، وفوضى الحرية التي تعد النظام الأساسي فيه، فتصبح تلك التربة هي الأرض الخصبة لإنبات تلك الهويات المستحدثة للذات بدلاً عن هويتها الواقعية. مما ينعكس أثره على العالم الواقعي في شتى اتجاهاته الاجتماعية والدينية والأخلاقية... الخ، ولعلّ هذا الانسحاب المتسارع من العالم الواقعي للعالم الافتراضي دليل على عظم الهوة بينهما، وحجم التباين بين

العالمين حيث علمنا المعاصر يميل إلى أحدهما ويدعمه بدعائم التطور التكنولوجي والسرعة ، فالعالم الافتراضي على سبيل المثال هو عالم يعتمد على التكنولوجيا المتطورة والتي بدورها لا تحتاج الى تعقيدات أو روتين في إبداء الرأي، أو إثبات الحججة، أو أدونات عدّة لتقديم هذا الرأي لأحدهم أو لجماعة ما ، بل يمكنك بقبسة زر واحدة أن ترسل رأيك ومضمون فكرك لمئات أو ألوف أو يزيد ، معلناً به على الملأ أن العالم الواقعي لن يستطيع مجازة تلك السرعة او التطور التكنولوجي التي توغلت إلى صميم حياتنا فأصبحت ناقوس خطر يدق باستمرار ليخبرنا أننا نعيش في وجود افتراضي بعيداً كل البعد عن العالم الحقيقي ، ليتكون هذا الواقع المفرط بعد دمج الواقعين الحقيقي والافتراضي ، والذي لا نتيجة له إلا موت الواقع الحقيقي ، حيث الاصطناع هو الذي يقول الكلمة التي تسمعها الأذان وتعيها العقول ، وحيث كلمته هي الكلمة الأخيرة.

قائمة المصادر

- Baudrillard, J. (1975). *The mirror of production* (M. Poster, Trans.). Telos Press.
- Baudrillard, J. (1981). *For a critique of the political economy of the sign* (C. Levin, Trans.). Telos Press.
- Baudrillard, J. (1988). *America* (C. Turner, Trans.). Verso.
- Baudrillard, J. (1994). *Simulacra and simulation* (S. F. Glaser, Trans.). University of Michigan Press. (Original work published 1994)
- Baudrillard, J. (1994). *The illusion of the end* (C. Turner, Trans.). Polity Press.
- Baudrillard, J. (1995). *The Gulf War did not take place* (P. Patton, Trans.). Indiana University Press.
- Baudrillard, J. (1998). *Symbolic exchange and death* (I. H. Grant, Trans.). Sage.
- بودريار، ج. (1995). *المجتمع الاستهلاكي: دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه* (خليل أحمد خليل، تعريب). دار الفكر اللبناني.

- بودريار، ج. (2006). *الفكر الجذري: أطروحة موت الواقع* (منير الحجوجي وأحمد القصور، ترجمة). دار توبقال للنشر.
- بوجنال، م. (د.ت.). *الفكر الجذري عند جان بودريار*. مدونة محمد بوجنال.
- كارتر، د. (2010). *النظرية الأدبية* (باسل المسالمة، ترجمة). التكوين للطباعة والنشر والتوزيع.
- منصور، أ. (د.ت.). *من الليبرالية إلى مجتمع الاستهلاك*. الحوار المتمدن.